وللحب ساعة تدق فى القلب!

ما من شىء كان يصيبنى بالفزع فى مرحلة الدراسة الابتدائية مثل علم الحساب . كان حفظ جدول الضرب يساوى عندى الضرب . الضرب بالمسطرة على أصابع اليد لنسيانى اعداد هذا الجدول . ثم جاء الفصل الذى كنا نمتحن فيه بمسائل حسابية تدور حول أشياء كالألغاز لا يدخل عقلى منها شىء . . كانت تحكى عن قطارين أحدهما يجرى بسرعة كذا والآخر يقابله بسرعة كيت . وعلينا نحن التلاميذ المساكين أن نحسب لست أدرى ماذا ؟ . . أوعن الماء الذى يتدفق من حنفية ليصب فى بالوعة كمية من الماء ، والبالوعة يتسرب منها هذا الماء بكمية كذا ، وللمطلوب منا أن نحسب ، ونعرف ، لم أعد أذكر ماذا كان المطلوب أن نعرف ؟ . .

إن شبح هذه الامتحانات كان يملؤنى بالذعر ، إلى حد أنى كبرت وأنا أكره أن أحسب شيئا . . حتى إذا جاءنى أحد بنقود فانى أجد الأسهل أن أضعها فى جيبى دون عد . . فالمهم أن تكون موجودة ، وكميتها بالنظر تستدعى الاهتمام ، حتى عرف كل من يعاملنى بنقود أن يتجنب معى المفاوضة والمحاسبة ، وأن عليه فقط أن يرص نحت نظرى نقدا محترما ، ويسكت ، وبذلك يتم المطلوب فى خير وسلام . .

على الرغم من ذلك فإنى عندما كبرت وعت مداركى وغرقت فى أعماق الثقافة العليا ، احببت العلم ، وسعيت إلى الإحاطة بأهم ما انتجه العقل البشرى من علوم . . حتى العلوم القائمة على الرياضيات العويصة ، كنت أترك الرياضيات والمعادلات التى لا أفهمها بالطبع ، وأركز اهتمامى على النتائج . . قرأت « اينشتين » فى كتابه « نظرات على العالم » وما كتب عنه مثل « اينشتين والكون » محاولا الاقتراب من فهم نظريته عن النسبية ، كما حاولت فهم زميله « ماكس بلانك » فى نظرية « الكوانتا » . . وقرأت واعدت قراءة الرياضى الفرنسى « بوانكاريه » فى كتبه « العلم والفرض » و « والعلم والمنهج » و « قيمة العلم » وهى تمتاز بالأسلوب المضىء المبين . كما قرأت كتاب « ما هى الحياة » للعالم البيولوجى « شرودنجر » برغم اسلوبه المعقد واعترافه بأن كتابه ليس لعامة القراء ، ثم كتاب الفيزيائى كاستلر ، وهو صديق شخصى لى أقابله فى مؤتمرات اليونسكو الآن ، وحاولت فهم كتابه عن المادة « ذلك المجهول » دون أن أخبره بذلك حتى لا أحرجه . لأنى لم أفهم شيئا كثيرا من أبحاثه العويصة . . إن الذى يهمنى من العلم ليس أسلوب البحث ، ولكنه البحث ذاته فى نتائجه التى وصل إليها . ان الرياضيات والمعادلات فى العلم هى السلالم التى نرتقى عليها للوصول إلى القمة ، التى نستشرف منها أسرار الوجود . . وهذا ما اريده : هذا الاستشراف . . ومما يهمنى أيضا معرفة طريقة التفكير عند فصائل البشر العليا مثل الفلاسفة والعلماء . أما الفلاسفة فأمرهم سهل . لأنهم هم الأقرب إلى الأدباء . ولكن العلماء بمناهجهم العلمية هم الأبعد والأصعب . وان كان « اينشتين » قد قرب الأمر إلى ذهنى بقوله : « إن العلماء فى حاجة أيضا إلى الوحى الذى يحتاج إليه الشعراء » . .

ولقد قلت مرة : « ان الفنان والعالم . . كلاهما يقوم عمله على تحليل وتركيب الحياة ومحاولة اكتشاف قوانين الطبيعة واعادة بنائها فى مخلوقات وموجودات جديدة » . .

ولم يدهشنى بعد ذلك أن أعرف حب اينشتين لموسيقى موزار ، وأنه كان فى أوقات راحته وفراغه يعزف على الكمنجة لذلك الموسيقى العظيم . . كما عرفت أن زميله « ماكس بلانك » كان يحب هو الآخر بيتهوفن ويعزف على البيانو مؤلفاته . . بل لقد علمت أيضا أن العالمين كانا يجتمعان فى بعض الأمسيات ليعزفا معا أعمال هذين الفنانين . . ولقد أكد عندى هذا التقارب الروحى بين العالم والفنان ما وجدته فى عالم نعرفه فى بلادنا . . هو عالمنا الرياضى المصرى على مصطفى مشرفة . . فلقد سمعت عنه فى الثلاثينيات أنه كان من بين عشرة علماء فى العالم تعمقوا يومذاك فى فهم اينشتين ونظريته . وقد ذكره اينشتين نفسه فى بعض المناسبات العلمية فيمن ذكر . . ولم أكن قد عرفته شخصيا . واستبعدت أن تقوم بيننا معرفة ، ولا شىء يمكن أن يصل بيننا . . إلى أن فوجئت ذات يوم برسالة تتصل منه على غير سابق مناسبة أو تمهيد . . كانت تلك الرسالة بهذا النص :

١٩ فبراير ١٩٣٤ ٣ شارع ديسكس
مصر الجديدة

عزيزى الاستاذ توفيق الحكيم

أذكر أنى عقب عودتى من انجلترا أول مرة – بعد غيبة نحو ست سنين عن مصر – كنت أتحدث إلى سيدة انجليزية ، فدار الحديث حول تشارلس دكنز وما لهذا المؤلف العظيم من المقدرة على تخليد شخصيات الطبقات المتوسطة فى عصره ، قالت ألا يوجد بينكم كاتب يصور

الحياة المصرية ويبرز ما فيها من الشخصيات التى تمثل الشعب المصرى فى عصرنا الحالى . على نحو ما فعله دكتر فى عصر الملكة فكتوريا ؟ قلت أخشى يا سيدتى أننا فقراء من هذه الناحية . ولكن لعل المؤلف الذى تطلبينه قد ولد أو لعله يوشك أن يولد . قالت إن على مؤلفك المنتظر أن يسارع لا انتقرض اشخاص رواياته كلهم أو جلهم قبل أن يدركهم بقلمه .

قلت لتدع السماء معا أن تظهره بأعجوبة . وبالأمس وأنا أقرأ كتابك « عودة الروح » عاودنى ذكرى هذا الحديث — وقد مضى عليه ما يقرب من عشر سنين — فساءلت نفسى جديا هل استجيب الدعاء ؟ هل صار سليم وصارت زنوبه وصار معروك شخصيات قومية خالدة مثل : مكوبر ، ومسز أرمس ، وسام فلر ؟ شىء واحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال بصفة قاطعة هو الزمن . أما أنا فأكتفى بأن أثير السؤال .

على مصطفى مشرفة

أدهشتنى هذه الرسالة من عالم متخصص فى الرياضيات العليا ؟ ! . . وقلت لنفسى : أيمكن لعالم رياضى من هذا الطراز أن يهتم برواية مثل « عودة الروح » ؟ ! . . وكان من الطبيعى بعد ذلك أن تتم بيننا المعرفة الشخصية . ودعانى إلى الغداء فى منزله بمصر الجديدة . وعرفت كيف إنه لم يكن مغلقا على علوم تخصصه وحدها ، بل إنه على اطلاع واسع بالثقافة كلها بمختلف فروعها من فكر وأدب وفن ، مع تذوق للموسيقى الرفيعة وغيرها من الفنون . وذكرنى بالعالم اينشتين نفسه واهتمامه بالموسيقى وعزفه لها . وجعلنا نتحدث فى كل شىء . . وعلى الأخص عن اينشتين ، وكيف إنه كان فى كبره يلعب مع الصبية ، ويشاطرهم العاب الألغاز مثل الحلقات المعدنية التى يدخلون بعضها فى بعض ثم يحاولون فصل كل حلقة عن الأخرى .

وكان الصبية ينجحون فى ذلك ، أما هو العالم الرياضى العبقرى فكان يتعثر ويعطى ، ويعجز أحيانا وهم يسخرون منه وهو يضحك فى تبسط واستمتاع . .

وسألت مشرفة أن يبسط فى نظرية النسبية عند اينشتين ، فأجاب بأن خلاصتها فى كلمتين : أنه لا يوجد زمن مطلق ، وأن أى شىء يتحرك فى الفضاء له وقته الخاص به وسرعته الخاصة لمرور الأحداث . وأراد أن يبسط فى الأمر فى صورة قال إنى لا شك لاحظتها بشعورى . وهى أن المحب الجالس ينتظر حبيبته يبدو الوقت بالنسبة إليه اسرع مما لو كان قد نهض وتحرك ليبحث عنها أو يقابلها . فعارضته قائلا له : انى باعتبارى عاشقا سابقا لاحظت العكس . فأنا فى الحب والعشق والغرام مدمن جلوس على المقاهى فى انتظار الفرص التى لا تجىء ، والمواعيد التى لا تتحقق . وفى قعودى وجمودى فوق الكراسى يبدو لى أن الوقت أيضا قد جمد وقعد لا حراك به مثل . أما إذا غنت الحبوبة ثم أمامى مسرعة ونهضت لأحق بها وجريت خلفها . . فإن الوقت يجرى هو أيضاً . كما اسمع دقات قلبى تسبق خطواتى . .

فقال ضاحكا إنه يقصد دقات الساعة الحقيقية ، وليس دقات القلب الخوان . ونصحنى أن أحقق من ذلك بساعة مضبوطة أنظر فيها عند إصابتى بالحب . وأقارن الوقت لحظات القعود بالوقت لحظات الركوض . . فضحكت بدورى .

وقلت : هل تتصورنى عند الحب امسك بساعة مضبوطة أنظر فيها وأنا قاعد وأنظر فيها وأنا أجرى خلف الحبوبة ، وأحسب الدقائق والثوانى وأقارن وأفكر فى نظرية الأستاذ المحترم اينشتين ؟ !

فلنترك اذن المحترم اينشتين بعيدا . . فإن ساعة القلب المضبوطة أو غير المضبوطة إذا دقت فنحن لا نفكر فى اساتذة الرياضة ولا فى علماء الفيزياء الأجلاء ! . . ومع ذلك فان العلاقة بين الحب والزمن لا يمكن أبدا انكارها . . وفى هذا أمثلة عجيبة ، فمن المعروف أن فتاة فى العشرين أحبت وتزوجت شارلى شابلن وهو فى الستين ، وانجبت منه أطفالا عديدين . . دون أن تشعر بفارق السن والزمن بينهما . وفى بلادنا يحدث أكثر من مرة فى الريف خاصة ، أن ترضى بنت العشرين بالزواج من شيخ فى السبعين وتعيش معه سعيدة ، فى حين أنها لم تحلم لخطبتها إلى رجل لم يبلغ الأربعين . وقد سئلت أحداهن فى ذلك فقالت إنها تشعر بفارق السن مع ذلك الذى فى الأربعين ، ولم تشعر بأى فارق سن مع الذى فى السبعين لأنها تحبه .

اينشتين العقل والعاطفة

فالحب فى نظرها وقلبها لم يشعرها بالزمن . وهذا ما جاء عندى فى « أهل الكهف » التى كتبتها من نصف قرن ، وفيها أحيت بريسكا أحد أفراد الكهف وبينهما من الزمن ثلاثمائة سنة ، ولم تشعر بالفرق ، فى حين أن المجتمع من حولها يشعر بذلك ، ويقف حائلا بينهما وبين ذلك الحب العجيب . أما هى فقالت : « ان الحب يحلق فوق الزمن كما تحلق الفراشة فوق الأزهار » . . وبعد ترجمة هذا العمل إلى لغات اجنبية ذكر أحد النقاد الأوربيين اسم « اينشتين » . ولم أعد أذكر تفصيلات رأيه . . ولكن الواضح أن الحب هو الذى يستطيع أن يؤكد لنا النسبية فى الزمن .

وتركنا الحديث فى العلم . ونهض مشرفة يدير فى بعض الأسطوانات الموسيقية على « الجراموفون » . وجاء ذكر « موزار » فسألت عن سر تفضيل « اينشتين » له : فقال : ربما كان ذلك لصفاء موسيقاه .

فأكملت من عندى : خاصة أن هذا يأتى فى وقت لبث فيه بطلان نظرية الأثير الذى يملأ الفضاء ، فاقترن الفضاء بالصفاء . .

فقال : يحسن عدم الاغراق فى التفسيرات . والا سألنا وفسرنا : ولماذا كان يفضل « ماكس بلانك » بيتهوفن ؟ ! . . إنه حب الموسيقى وكفى . .

ولقد سألت فيما بعد صديقى « كاسنلر » وهو الحائز أيضا على جائزة نوبل عن ابحاثه فى المادة والضوء . وكنا على مائدة عشاء فى دار اليونسكو . وهو قريب إلى نفسى لأنه ولد معى فى نفس العام ، وان كان يفصل بين الميلادين شهر أو شهران . وهو طويل القامة نحيف الجسم . ولذلك جعلت الاحظه وهو يأكل . وكنت قد ألقيت عليه سؤالى عن علاقة العلماء أمثاله بالموسيقى ؟ . . ولكنه انشغل عن الاجابة بازدراد لقمة من لون دسم من ألوان الطعام رأيت الحكمة تقضى فى سنا بالحذر منه . . وشغلنى أنا أيضا الملاحظة لأكلى وأكله ، ووجدت أنى أكثر منه اقتصادا فى تناول الطعام . . واقتصادى هذا لا يقتصر على طعامى ، بل أيضا على طعام الآخرين . فما من وليمة حضرتها إلا اقتصدت فى الأكل ، كما لو كان من جيبى الخاص . . ولست أدرى السبب . . أهو المحافظة على الصحة . . أم المحافظة على العادة ؟ . . لأبقى على عادتى فى بقى . . فلا يتنقل النهم على مائدة الآخرين إلى مائدتى أنا ، والعياذ بالله . .

توفيق الحكيم